

عرش أولاد يحيى 'دوار منتانو' حاضرة العلم والمشايخ خلال الفترة الاستعمارية

د/سفيان لوصيف 

جامعة محمد لمين دباغين - سطيف 02

sofianeloucif@yahoo.fr

ملخص:

كان لمنطقة أولاد يحيى التي تعرف بدوار منتانو إسهاما كبيرا في الحركة الثقافية، ففي كل قرن أو جيل كان يظهر من أبنائها من يدل بدلوه في خدمة الدين والبلاد، والذي يطالع سير شيوخ العلم مثل أحمد لخضاري، مسعود منصوري، صالح معطي، أحمد خرف الله، أحمد بن بارة، وغيرهم كثير، يزداد فخرا واعتزازا، بهؤلاء الأعلام الذين كانوا نجوما في سماء العلم والمعرفة، وقد سارت بهم الركبان في كل مكان، وكان لهم شأن كبير، فقد كانت تزخر بفقهاء وعلماء ومشايخ كثيرين، ضربوا منذ القدم بنصيب وافر في خدمة العلوم الشرعية، وجمعوا في جهودهم بين الاطلاع في كتب العلم والنظر فيها واستخراج كنوزها أو شرحها أو التعليق عليها، وغير ذلك من أنواع الإسهام العلمي.

الكلمات المفتاحية: عرش أولاد يحيى، دوار منتانو، العلم، الجزائر، الاستعمار الفرنسي.

Résumé:

La région d'Ouled Yahia, connue sous le nom du Douar Mantano, avait une contribution majeure au mouvement culturel. Dans chaque siècle ou génération, il a été montré de ses fils les plus vénérables, ceux qui consacrent leur vie pour servir la religion et le pays, comme par exemple : Ahmed Lakhdari, Messaoud Mansouri, Salah Maati, Ahmed Kharf- Allah, Ahmad Ben Bara et bien d'autres, ces derniers étaient des étoiles dans le ciel de la science et de la connaissance, et leur célébrité propagée partout par les gens, et ils avaient beaucoup d'érudits, dont cette région avait l'honneur de mettre au monde ces savants, philologues et cheikhs, qui ont l'opportunité depuis l'Antiquité d'être à l'entière disposition des sciences islamiques, à travers l'interprétation et le commentaire des livres et d'autres types de contribution scientifique.

les mots clés: Le trône des fils de Yahya, Science, Algérie, Colonialisme français.

لا توصف منطقة بحاضرة علمية⁽¹⁾ ما لم تكن دائرتها العلمية قائمة، ونابضة، ومنتجة، وذات حركة دائبة برجالها، ومنتوجها المعرفي والفكري، فالحركة العلمية اسم على مستى، وهي نقيض الجمود والتوقف، فالعلم هو الذي حفظ لهذه المدينة أو تلك شأها ورمزيتها وعراقتها، حتى صار يقال لها حاضرة علمية، بعضها بقيت على حيويتها تغذي المجتمع بالعلماء جيلا بعد آخر، وبعضها تعرضت للخراب، ولا يحفظ المجتمع إلا اسمها، والبعض الآخر نالها من الخراب ما نالها، ولكنها بقيت محافظة على جذورها تنمو كلما تنفست هواء الحرية.

أولا/ أولاد يحيى حاضرة علمية

إن عرش أولاد يحيى أو دوار متنانو كان يحوز على عدد معتبر من الفقهاء، والمشايخ، وحفظة القرآن الكريم، ويشهد على ذلك ما عثرنا عليه من مخطوطات، ومؤلفات قيمة، ونادرة مورثة من الأجيال السابقة، مما يدل على عراقة الثقافة الإسلامية في المنطقة، ولقد بذلت جهود مختلفة في الحفاظ على هذا التراث الديني رغم الصعوبات التي اعترضت هذا العمل الجليل، والذي كان مستهدفا من طرف المستعمر لطمسه والقضاء عليه.

ولم يتمكن هؤلاء الأهالي من حفظه إلا بجهد جهيد، متخذين كل الأساليب الممكنة من أجل تهريره، وإخفائه، وحفظه من التلف والضياع، لأن المخابئ التي اتخذت لإخفاء تلك المخطوطات كانت جلها تحت الأرض، وهي معرضة للرطوبة والمناخ، ولذي يجعل حفظهما من التلف أعجوبة نادرة قلما تتم بنجاح، ونحنت العملية فعلا بفضل الحرص الشديد ومداومة التفقد، ومع ذلك أتلقت الكثير مثلما حصل لمخطوطات وكتب العالم أحمد لخضاري⁽²⁾.

وعلى ذكر ما تقدم فلا غرابة من أن تصبح هذه المنطقة مخزونا ثريا لتخريج مختلف الفئات في هذا الشأن الثقافي والديني، من طلبة وحفظة القرآن الكريم، ومتمرسين في الفقه الشرعي كأمثال العالم أحمد لخضاري، والفقيه صالح معطي، والشيخ محمد أمزيان بوناب، والشيخ منصوري مسعود خريج الأزهر، وأحمد خرف الله وغيرهم كثير، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على الطموح

العريق، والمتأصل في أبناء المنطقة منذ قرون عدة، مما جعلهم يبدلون الجهد، والترحال لآفاق المجد والشرف مهما عنت لهم من قريب وبعيد.

والجدير بالذكر أن هذا العرش كان يطلق عليه اسم أولاد يحيى وهو العنوان الأصيل الذي يعرف به هذا العرش، و الذي يعتبر المدد الرئيسي الذي كان يمد أغلب الزوايا سواء في منطقة القبائل أو غيرها بطلبة القرآن الكريم الدارسين، وبالمشايخ المدرسين ومعلمي القرآن الكريم، واللغة العربية باختلاف فنونها من نحو وصرف، وقد تحلوا بمرتبة شيوخ لبعض القرى والمدائر في مناطق مختلفة، وتخرج على أيديهم طلبة ممتازون هاجروا إلى حواضر ومعاهد التعليم العالي المشهورة على المستوى العالم العربي والإسلامي كجامع الزيتونة و لأزهر الشريف.

وبالمختصر فإنه لا تخلو دشرة من هذه الجهة من كُتّاب ومعلم للقرآن الكريم، حتى أصبح حفظ القرآن الكريم كله أو جزء من أجزائه الطابع المميز للمنطقة، حتى اشتهرت عادة قيام مجموعات من طلبة أو الحافظين للقرآن الكريم للقيام بالترديد الجماعي على طريقة المحمول (عبارة المحمول أن هذا الأسلوب في القراءة الجماعية بالمدود المتوسطة والذي سمي محمولا، وهو ليس من القراءات المعروفة إلا أن علماء التلاوات والقراءات حملوه على الجواز لما فيه من نتائج إيجابية جدا تعين على الاستيعاب والتحفيظ)⁽³⁾.

وتعد قرية الماعلي⁽⁴⁾ من الناحية العلمية من القرى الرائدة في ولاية سطيف، إذ تعرف في وسط القرى المجاورة بقرية القرآن الكريم، إذ كان غالبية سكانها يحفظونه ويعلمونه، وتتميز قرية الماعلي باحتضانها لأكبر عدد من دور القرآن الكريم، حيث احتوت وحدها على عشرات من حفظة القرآن الكريم، وقد صارت منذ أزيد من قرن وإلى الآن بمثابة المضخة التي تبث العلوم الشرعية في شتى أوصال المجتمع المحلي.

ولاقى دور القرآن الكريم إقبالا متزايدا من طرف السكان، وتمكن الكثير منهم من حفظ كتاب الله مرتلا حسب القواعد، مشفوعا بحفظ بعض المتون من كتب السنة المتضمنة للأحكام والعقيدة، وهو ما جعل من طلبة وخريجي هذه الدور ركائز علمية يتم الاعتماد عليها داخل المجتمع في مجال التعليم والإمامة والإفتاء.

ولأن كان لحافظ كتاب الله ثواب وأجر عظيم تنافس عليه شباب ومشايخ قرية الماعلي، فقد وعد الله سبحانه وتعالى قارئ القرآن الكريم أن كل حرف يقرأه من القرآن بعشر حسنات والله يضاعف لمن يشاء، كما وأن القرآن الكريم يدافع عن صاحبه يوم القيامة، وإن لحافظ القرآن الكريم ميزات وأشياء كثيرة وعددها الله إياها في الدنيا، وله حظ منها في الآخرة، فإن أهل القرآن هم أهل الله وخاصته، فمن يريد أن يجالس الله تعالى فليقرأ كلامه وليعمل به، وأشياء كثيرة لا تعد وتحصى (5).

وحفظة القرآن في قرية الماعلي من الجيل الأول في القرن 20 م نذكر على سبيل المثال لا الحصر: أحمد لخضاري، ومعطي صالح، وخرف الله أحمد، وخرف الله محمد، وخريص الحسين، وخرف الله عمر، وخرف الله مسعود بن عمر، ومعطي الحسين بن البشير، وخرف الله مسعود بن محمد، وخرف الله العربي، وخرف الله محمد بن عمر، وخرف الله حمو، حمداوي حمو، وحمداوي لخضر، وقادري مبارك، وقادري العمري، ومعطي محمد، ومنصوري محمد، وعزوق السعيد، وابن شعبان الحسين، وابن شعبان صالح.

وعلى ذكر دور هؤلاء المشايخ في الإصلاح الناجح والذي يتوقف نجاحه على مدى الثقة في هذا الشيخ المصلح، فحاسة المجتمع دقيقة جدا في التقييم والتقدير فإنها لا تخطئ أبدا في حدسها عن وضعية الشخص وتميز جيدا في معرفة الغث من السمين، وإذا وجدت أن هذا الشيخ قد زكي من طرف الجماهير فاعلم بأن تركيتهم جديرة بالاستحسان والقبول.

ثانيا/ رحلات طلب العلم

واصل الكثير من طلاب منطقة منتانو تعليمهم في زوايا منطقة القبائل وأماكن أخرى، وذلك للأخذ من شيوخ متعددين، فلأمر فائدة علمية وتربوية معلومة الجدوى والمغزى، لأن أولئك بعد قيامهم بتلك الرحلات العلمية يعودون إلى موطنهم الأصلي بمعارف كثيرة، وفيها إضافات وإغناء التجربة في التدريس والتلقين، ثم إن خصلة تعداد شيوخ المتعلم، والاستفادة من جل من تتاح الاستفادة منه هو سلوك ونهج العلماء في تاريخ الإسلام منذ بزوغ فجره، وتعد زوايا مناطق بلاد القبائل الوجهة الأولى التي كانت تستقطب طلبة منطقة عموشة.

ومنطقة حوض الصومام تحتضن دائما شيوخا بارزين في تلقين العلوم الشرعية، واللغوية، بالمتون، والمصنفات، وكذا رجال الفكر، والأدب، وبها زوايا متنوعة، وكثيرة اشتهرت وعرفت تفوقا في اللغة، والخط، والنحو، والفقه، وكانت بمثابة معاهد عليا أسست لتعليم القرآن الكريم، وتدريس علومه، ولعب مشائخ هذه الزوايا الدور الأكبر في نجاحها، واستمرار إشعاعها العلمي والديني، فكانت لهم المسؤولية في اقتناء الكتب القيمة والنادرة، وتكليف الطلبة بمطالعتها، والتي كانت تفتح عقولهم، وتنير معارفهم، وتفتح لهم رغبة الاطلاع، والاستزادة في علوم الدين واللغة العربية، والتاريخ الإسلامي، والحساب، ومن هذه الزوايا نذكر:

1- رحلة العلم إلى زاوية سيدي موسى في تنبذار

تأسست هذه الزاوية خلال القرن (9هـ / 15م) في بلدية تنبذار دائرة سيدي عيش ولاية بجاية حاليا ⁽⁶⁾، على يد أحد الرجال الصالحين، وهو الشيخ سيدي موسى الوغليسي، وهو من علماء بجاية الناصرية، وتقع في قلب عرش بني وغيليس ⁽⁷⁾ التي ينسب إليها الشيخ الوغليسي المشهور، وكانت هذه الزاوية تشع بنورها على ضفاف وادي الصومام، وانبثقت منها زوايا عدة والتي تقدر بالعشرات، وما زالت تؤدي دورها الديني والاجتماعي إلى اليوم، ومن المشائخ الذين تخرجوا منها ودرسوا فيها الشيخ محمد السعيد بن سحنون، و الشيخ السعيد البهلولي ⁽⁸⁾ الذي ينحدر من بني وثيلان، وهو دفين زاوية سيدي موسى بجانب قبر مؤسسها، وكان شيخا محترما مبعجلا من سكان عرش بني وغيليس.

وكان أغلب طلبة زاوية سيدي موسى من جهة سطيف و نواحيها، خاصة الشمالية الشرقية (عموشة، ووادي البارد، وعين الكبيرة، والدهامشة، وبني عزيز، والأوريسيا)، ويعود اختيار هذه الزاوية رغم وجود زوايا كثيرة ومعتبرة تتجاوز العشرات لما فيها من ظروف الإقامة والمعيشة ما لم يتوفر في غيرها من الزوايا، ولما فيها من تنظيم داخلي مقبول وحرية منتظمة، ويتمثل ذلك في أن الشيخ سيدي موسى قد ترك كتاب صغير يسمى 'كتاب السفارة' الذي يحاكي ما يعرف الآن بالقانون الداخلي للزاوية، وهو مرجع أساسي يرجع إليه عند الخلاف، سواء بين الطلبة أو

بين ممثلي العرش ورؤسائهم، والذين كانوا يشرفون على ما تحتاج إليه الزاوية من تمويل أو تنظيم (9).

وكان من هذا النظام انتخاب اثني عشر شخصا من قدماء الطلبة (نظام جماعي ديمقراطي تشاوري، بما فيه تداول على السلطة بكل حرية و رضا وقبول)، والموثوق فيهم من زملائهم، وهؤلاء الطلبة المختارون يمثلون المجلس الأساسي للمؤسسة، وهذا المجلس في نفس الوقت هو المرجع الأساسي للفصل في الأمور التي تحدث في الزاوية من خصومات إن كانت أو التأديب، ومن هذا المجلس ظهر مصطلح 'طالب السفارة'، بحيث يتولى كل واحد منهم الإشراف و التسيير لشؤون الزاوية لمدة شهر من الأشهر الاثني عشر، ويطلق على الذي يشرف على شؤون الزاوية لمدة شهر اسم 'المقدم' ويخلفه بعد انقضاء الشهر أحد زملائه من طلبة السفارة. وللمقدم صفتان في مباشرة النشاط:

— مقدم الأعباس.

— مقدم التدريس.

الأول مهمته الإشراف على الزاوية ماديا وسلوكيا (التأديب)، والتمويل، والاتصال المباشر مع وكلاء العرش، وهؤلاء لهم الدور الأكبر في ضمان ما تحتاجه الزاوية ماديا واجتماعيا، من حيث البناء، والصرف، والتمويل، والتدخل في الأمور الطارئة عند اللزوم، ويحظون بالاعتماد من قبل السلطات المحلية المسموح بها قانونا، والثاني أي مقدم التدريس يتمثل دوره في الحرص على المواظبة وحضور الطلبة في الحصص المعينة للحفظ، وكذلك في أوقات الصلاة (10).

وللزواية مصادر دخل تتمثل في جمع الزكاة أو العشور في رحلتين، هما رحلة إلى الشرق المتمثل في الأراضي الفلاحية الزراعية في سطيف ونواحيها مثل منطقة عموشة، والأوريسيا، وعين الكبيرة، والدهامشة، وعين عباسية، وبوقاعة، لأن هذه المناطق تتوفر على القمح والشعير خصوصا، ورحلة إلى الغرب في بلاد القبائل التي تتوفر على التين الجفف، ولا تقل أهمية هذه الجهة عن مصدر الحبوب الآتية من الشرق (11).

وأما زيت الزيتون فلحسن الحظ أن عرض بني وغليس يعتبر بحيرة كاملة لزيت الزيتون الفاخر، وللزاوية أرض فلاحية تقدر بالتعبير الفلاحي التقليدي (حرث ثلاثة أشهر)، والتي هي أرض حبس للزاوية، وقد كان لها أربعة بغال وثوران للحرثة، وفلاحون يشتغلون بنصف الغلة، وخطاب دائم يزود مطبخ الزاوية كل يوم بالخطب.

وبعد التأكد من حفظ المتعلم الوافد للقرآن الكريم، وحسن قراءته في الطور الأول يدخل المتعلم في مرحلة تلقي دروسا في الفقه المالكي، والعقيدة الإسلامية، والسيرة النبوية، ومختلف دروس اللغة العربية كالنحو والبلاغة وغيرها، وهناك مستويات ابتدائية تلقى فيها دروس فقهية كدراسة متن بن عاشر في الفقه، والعقيدة، والتصوف، ودروس في النحو على متن الأجرومية⁽¹²⁾، حيث يقوم المدرس بشرح هذه الفنون، وتيسير مفهومها معرفة وتطبيقا كالإعراب مثلا بالنسبة للنحو، وتلخيص الواجبات، والسنن، والأعمال التعبدية بالنسبة للفقه. ثم يتدرج الطلبة إلى مستوى أعلى كدراسة العديد من المتون ومنها:

- قطر الندى، وألفية بن مالك في النحو والصرف.
- منظومة ابن عاشر وشروحها الميارة الصغرى والميارة الكبرى، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، ثم متن الشيخ خليل بشروحه ومن أهمها جواهر الإكليل على متن خليل، وحاشية الدسوقي، والموطأ بشرح الزرقاني (في الفقه المالكي).
- جوهرة التوحيد، وأم البراهين الصغرى، وأم البراهين الكبرى للسنوسي في التوحيد.
- الجواهر المكنون في الثلاثة فنون (في البلاغة).
- تفسير الجلالين وتفسير ابن كثير (في التفسير).
- صحيح البخاري والأربعين النووية (في الحديث).
- السيرة النبوية لابن هشام⁽¹³⁾.

وفي هذا المستوى يهيئ ويتأهل الطلبة للارتقاء إلى مستوى أعلى، حيث يوجه الطالب النجيب في هذه المعارف الأولية إلى المعاهد العلمية المعروفة، والمعتمدة في تلك الفترة كجامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين في المغرب للحصول على شهادة التحصيل أو الأهلية، وقد

يواصل الطالب طموحاته العلمية دراساته العليا في المعاهد الأعلى مثل جامع الأزهر في مصر، وجامع دمشق في سوريا، وبعض المراكز المعروفة في مكة، والمدينة بأرض الحجاز.

هذا بالنسبة للمسار العام، أما ما يتعلق باستفادة المجتمع من هؤلاء الطلبة، فمنهم مبرزون في الثقافة العامة، والفنون العلمية التي تحصلوا عليها بامتياز، مجازون من طرف شيوخ موثوق في علمهم وسيرتهم الدينية والتربوية، فيعينون في مناطق مختلفة من الوطن، كل حسب مؤهلاته العلمية، وملائمته للبيئة التي يتولى فيها نشاطه، حيث يحتضنهم المجتمع الذي يضمن لهم الوسائل الناجحة والمرجحة لمزاولة هذا النشاط العلمي والديني والثقافي، فيتولون بدورهم تعليم طلبة آخرين، وتكوينهم لأخذ المشعل في المستقبل (14).

وكان التأديب في الزاوية يتمثل في خمسة أشياء نظرا لظروف وأعمال الطلبة كانت الزاوية في القديم تأدب على بعض السلوكات المنحرفة بغرامة مالية بسيطة حسب المخالفة المرتكبة، وقد ألغيت هذه العقوبة لفقر الطلبة، وبقي من أسلوب في العقوبات الردية منها الفلقة (خمسة إلى عشر جلادات في أسفل القدم)، وهذه بالنسبة للقصر والصغار منهم الذين يطلقون عليهم اسم (قداش لمصباح) يكلف بأعمال إشعال المصابيح وملئها (الزيوت ومادة كانت تعرف آنذاك باسم البترول)، والآخرون وهم البالغون يطلق عليهم اسم 'قداش النواله' أي العاملين في تهيئة الإطعام وسقي الماء، وهؤلاء يعفون من الأعمال الصغيرة لأنهم مكلفون بالأشغال الأكبر منها خاصة جمع الزكاة والعشور، ونخبة الطلبة هم الكبار الذين يديرون مجلس السفارة (15).

وجسدت زاوية سيدي موسى تنبذار من خلال وظائفها المتعددة حقيقة الإسلام ورسالته الشاملة، التي لم تجعل فاصلا بين الاهتمامات الدنيوية والأخروية، فكان خريج الزاوية داعية للإسلام، ومفقه للناس في أمور دينهم و دنياهم، وقد تجاوزت أنشطة الزاوية منطقة عرش بني وغلبيس وامتدت إلى مناطق مختلفة، وأصبحت نموذجا لزاوية تدرس فيها مختلف العلوم، ومنها يتخرج العديد من الفقهاء والعلماء الذين تنتدبهم الزاوية إلى القرى، والأماكن النائية للقيام بمهمة الوعظ والإرشاد، ونشر تعاليم الإسلام، وتعليم القراءة والكتابة، وتعمير المساجد بقراءة القرآن الكريم و تفهيمه، وشرح أحاديث الرسول ﷺ، والاهتداء بهديه والاقتداء بأخلاقه وسيرته.

ولذلك اهتمت الزاوية بالتربية الصوفية، وأول ما اهتمت بترسيخ تعاليم ومثل الإسلام السمحة والأخلاق الكريمة للرسول ﷺ، كما أن أذكار وأوراد الزاوية لم تخرج عن ترديد جملة من الآيات القرآنية الكريمة، أو الاستغفار من الذنب والصلاة على الرسول الأكرم مع مراعاة مستوى المريد العلمي، وكانت الزاوية مسؤولة عن الدفاع عن حضارة المسلمين التي تحمل شعار القرآن والسنة، فكانت الزاوية الرديف المساعد لأولي الأمر، والمستنهل للهمم، بحيث أنه يصعب قراءة تاريخ الجزائر الإسلامي دون استحضار دورها الجهادي، سواء تعلق الأمر بالعقيدة، أو المذهب السني، وبذل النفس من أجل ذلك (16).

كانت الزاوية نموذجاً للراعي المسؤول عن رعيته في مختلف شؤونها الدينية والدنيوية، خاصة في الفترات العصيبة مثل أيام الأزمات الاجتماعية، والاقتصادية، ومساهمة في حل مشاكلهم اليومية كالتقاضي، وحل المنازعات بين الأفراد والقبائل، وكمراجع لنشر أخلاق الإسلام وقواعده، وتطبيق تشريعاته وفق الكتاب والسنة، ومحاربة مختلف مظاهر الانحلال والانحراف، وعلى المستوى الوطني وجدت نفسها مسؤولة عن حرمة دار الإسلام أمام الاستعمار الفرنسي، فتحولت الزاوية إلى مركز للتعبة وتأطير المجاهدين، وسخرت كل إمكانياتها المادية والمعنوية لتحقيق تحرير التراب وطرد المحتل، وهذا ينسجم مع شعارها القائم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (17).

إن الزاوية المذكورة هي في الحقيقة مرجع ديني واجتماعي لنشر مختلف وجود الخير التي يحتاج إليها المجتمع من إيواء الطلبة، وتوفير متطلبات الدرس والإطعام، وجلب المشايخ والمدرسين للقيام بالمهام المطلوبة، زيادة عن إيواء واستقبال أبناء السبيل بضممان المبيت والتغذية، ويشمل ذلك الفقراء، والأرامل، والأيتام، والاحتاجين إلى المعونة والدعم من أبناء القرية والعرش (18).

ويتولى هذه المهام شيخ موثوق في سيرته وعلمه، يتخذ كرمز موقر ومحترم يرجع إليه في إصلاح ذات البين بين المتخاصمين بطريقة حكيمة وعادلة، توفر عليهم متاعب المحاكم الرسمية، ومن أنشطة شيخ الزاوية وطلبته التحرك في أوساط المجتمع حتى بالنسبة للأسواق الأسبوعية لنشر ما تيسر من المبادئ الدينية كالفتوى والترغيب في وجوه الخير على اختلاف مجالاته.

ونخص بالذكر الشيخ صالح العباسي وهو من شيوخ الزاوية البارزين، والذي كان كل يوم أربعاء ينزل إلى السوق الأسبوعي من أجل قضايا الناس في الصلح، والفتوى، وإرشاد الناس، وهو مجود القراءات السبع، ومدرس الفقه مثل الشيخ خليل وقواعد اللغة العربية والفرائض، وكان حريصا على تحفيظ القرآن الكريم للطلاب حفظا تاما، وهو من علماء عرش بني وغليس وكان الناس يستفتونه حتى بالمراسلة من مختلف الجهات، ويرد عليهم الجواب الشرعي بالرسائل⁽¹⁹⁾. ومن العادة أن يتولى الزاوية شيخ مجاز على الطريقة الصوفية كالرحمانية، وهي تسير تسيرا جماعيا فلا يمكن لنا أن نعطيها درجة العمل الصوفي، ومع هذا اشتهرت بظواهر ما يسمى بالفتح والبركة، حيث أن التحصيل فيها كان مباركا بصورة لم تحقق في أماكن أخرى، حسب رواية الطلبة الذين تدرسوا فيها.

ويذكر أحد طلبتها في مطلع الخمسينات من القرن 20م وهو عمر عباس قائلا: " شهدنا بعض الطلبة الموهوبين يصل وهو يغط في النوم العميق يسرد ما يقرب من خمسة إلى عشرة أحزاب دون خطأ يذكر، والشخص الذي صدر منه هذا المظهر هو الطالب علاوة فراح من عين الكبيرة، وهو من شهداء الثورة التحريرية، وتجرتني أنني قرأت على المشايخ الحليين مثلا عن الشهيد الشريف عباس الذي كان معلم القرآن الكريم، وفي مدة ستة أشهر لم أستطع الحصول إلا على ثمانية أحزاب بشق النفس، أما في زاوية سيدي موسى تنبذار والتي تلقيت فيها الإملاء والحفظ من طرف علاوة فراح حفظت في مدة ثمانية أشهر حوالي 45 حزبا حفظا تاما، فالفرق بينهما ملحوظ " (20).

كان النظام التعليمي في الزاوية صارما، بحيث لا يسمح للمتعلم بتلقي الدروس الفقهية والنحوية إلا وتحقيق من حفظ القرآن الكريم حفظا جيدا، ويذكر الشيخ عمر عباس بعد التمكن من الحفظ 'سمح لي بالمشاركة في الدروس الفقهية والنحوية في حلقة الشيخ صالح العباسي رحمة الله عليه، وكان الشيخ متقدما في السن، وكان له من الإجلال ما كان للمشايخ المذكورين آنفا، وكان مرجعا للأئمة والمشايخ المختلفة مستوياتهم في التحصيل، وبعد انتقاله إلى قرية إملاحن في

دائرة سيدي عيش، أخلفه في ذلك الشيخ عبد القادر زروق المكنى الزيتوني، والذي قام بدوره والذي لا يقل أهمية عن دور الشيخ عبد المالك (21).

وخلال فترة الشيخ عبد القادر زروق أدمجت زاوية سيدي موسى الناصري ضمن مدارس الإصلاحية التابعة لجمعية العلماء المسلمين وهذا خلال سنة 1953، وكان الشيخ عبد القادر زروق مدرسا وإماما حتى منتصف سنة 1955، حيث بدأت الطلائع الثورية تشتهر خاصة في مناطق جرجرة والأوراس، وشرعت قوات الجيش الفرنسي بتضييق الخناق على هذه المدارس، والتي هي بالطبع مضادة للاستعمار وداعية بطريقة أو بأخرى إلى الثورة (22).

تعرضت الزاوية في ذلك الوقت إلى التفتيش والترويع ثلاث أو أربع مرات مع طلوع الفجر، حيث أتلقت كل ما عثرت عليه من كتب، ومصحف، وتفتيش الصناديق، وعند بداية النشاط الثوري زار المجاهدون الزاوية، وفيها عقدوا اجتماعا لنشر تعليمات الثورة في عرش بني وغليس، وبني منصور بناحية أكفادو، وقاموا بتنصيب جماعة الخمسة، وخلايا المسبلين، وكذلك أخذ العهد من السكان في صورة اليمين بوضع اليد على المصحف، والتدريب على الحراسة، والأنشطة السرية ودفع الاشتراكات وجمعها، والوقوف بصرامة ضد أعمال الجوسسة والخيانة.

و ذات يوم قام فوج من المجاهدين المسلحين بمختلف الأسلحة بهجوم عملي على عساكر الجيش الفرنسي الذين كانوا متحصنين في المدرسة الفرنسية (إخليجن)، والتي تقع في سفح قريب جدا من الزاوية وأطلقوا الرصاص، لأن الزاوية كانت في القمة حيث فاجئوهم، ولا يعلم كم قتل من الجيش الفرنسي، وقتلوا بدورهم أربعة بغال ملك للزاوية، وفي الغد داهمت القوات الفرنسية زاوية سيدي موسى بأعداد هائلة وأحاطت بها من كل الجهات، واخذوا منها 25 شخصا إلى معتقل بجاية، ولا يعلم مصيرهم (23).

وبعدها كاد يكون نشاط الزاوية المعهود قد توقف بفعل الضغوط الفرنسية، ولم يبق في الزاوية التي كانت يفوق عدد طلبتها عن 100 طالب إلا حوالي ستة طلبة، وذلك خلال أواخر سنة 1955، وباقتراح من المهتمين تولى عمر عباس الإمامة في الجمعة والصلوات الخمس.

لقد كانت زاوية سيدي موسى الناصري في عرش بني وغليس مؤسسة دينية وعلمية واجتماعية، تبلورت أنشطتها وخصوصياتها منذ القرن (9/15م)، ثم توسع نشاطها وتجدد داخل المجتمع المحلي، مما جعلها تساهم في مختلف اهتماماته التعليمية، والثقافية، والمادية، والمعنوية والتعبير عنها بكل صدق وموضوعية، ولاشك أن من أهم تلك المهام وأنبليها ما قامت به الزاوية من تدعيم وترسيخ للثقافة الإسلامية سواء تعلق الأمر بالفقهيات أو التربية الصوفية، ذلك أنها في كل تلك المهام ظلت تستمد أصولها ومنابعها من الكتاب، والسنة، والسلف الصالح، ولهذا الزاوية الفضل في إنشاء زوايا أخرى متفرعة في إغزر أمقران منها زاوية الشيخ مزيان، والشيخ بلقاسم بضواحي وادي الصومام.

2 - رحلة العلم إلى زاوية بن سحنون

أسس الشيخ محمد السعيد السحنوني⁽²⁴⁾ في قرية تاغراست بإغزر أمقران بحوض الصومام زاوية وذلك في أواخر سنة 1892 م، فكان يدرّس فيها القرآن الكريم واستظهاره، إلى جانب الفقه والنحو، ويدرس معه مشايخ آخرون القراءات، والحديث الشريف، والفلك، والحساب، وبهذا فتح أمام أبناء المنطقة والوافدين من خارجها لاسيما أبناء منطقة عموشة، نافذة لتعلم دينهم، والمحافظة على أصالته العربية الإسلامية⁽²⁵⁾.

وازدهرت زاوية بن سحنون في بني وغليس في عهد الشيخ محمد الشريف وأخيه محمد، وكانت كما وصفها محمد الصالح الصديق بقوله: " وصارت مهوى القلوب، وقبله الأنظار، يؤمهما طلاب العلم والمعرفة من مختلف الأرجاء حتى أنك لترى المغربي، أو الليبي، أو الصومالي (جيبوتي) إلى جانب الجزائري، وخاصة عندما استعان الشيخان على التدريس بأساتذة من تونس أمثال الفرشيشي، والشيخ محمد الحبيب، وأساتذة جزائريين أمثال الشيخ الزايدي من رأس الوادي خريج الجامع الأزهر، وبلغ عدد الطلبة في الزاويتين 550 طالبا، وكلهم يتمتعون بالنظام الداخلي، واستمرت الحالة أكثر من ثلاثين سنة " ⁽²⁶⁾.

وكانت زاوية بن سحنون تحتوي على كتب ومخطوطات نفيسة، لاسيما في فترة الشيخ محمد الشريف أمقران، والذي كان شغوفاً بجلب الكتب منذ كان طالبا بجامع الزيتونة، فكان يرتاد أشهر

المكتبات في تونس منها: الثميني، والعسلي، والأمين، وفي الجزائر كان كثير الاتصال بمكتبة مراد رودوسي، وكتب كثيرة اقتناها من سفره ورحلاته في بلاد المشرق العربي.

فاحتوت بذلك مكتبته على كتب الأدب، والفلك، والفقه، وعلم الفرائض، وعلوم اللغة، وبعض المخطوطات النادرة جدا مثل نوازل الغرناطي، وضمت الدوريات مجلات وصحف منها: الشهاب، والبصائر، والنجاح، والنهضة، والأسبوع، ومجلة الأزهر، ومجلة نور اليقين، ولسان الحال، ومجلة التمدن الإسلامي، ومجلة الرابطة العربية، والزهرة، والبالغ الجزائري (27).

3 - رحلة العلم إلى الزاوية الحملاوية

الأسرة الحملاوية من الأسر الدينية العريقة إذ عرف العديد من رجالها منذ تاريخ بعيد بالتدين والصلاح، والعلم، والفضل، ويرتفع نسبها إلى الأدارسة الحسينيين، قدمت هذه الأسرة من مدينة تازة المغربية وحطت رحالها في البدء في المكان المعروف بوفولة قرب شلغوم العيد، وكان ذلك في القرن التاسع الهجري، منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، وشيدت الأسرة في بولوفة زاوية لتعليم القرآن وعلوم الشريعة، وغادرتها إلى بلدية وادي سقان دائرة التلاغمة ولاية ميله حاليا (28)، وبرز فيها رجال كانوا من أعيان تلك المنطقة خلال العهد التركي، كما عرفت بمساهمتها المتواصلة في مقاومة الاستعمار الفرنسي (29).

واستمرت العائلة في رسالتها العلمية والتربوية إلى أن برز من أبنائها مؤسس الحملاوية الشيخ علي بن الحملاوي الذي تعلم في صباه القرآن والعلوم الشرعية، ثم انخرط في الطريقة الرحمانية على يد السيد خليفة أحد مقدمي شيخ زاوية طولقة علي بن عمر خليفة الشيخ محمد بن عزوز البرجي، ثم التحق بالزاوية الرحمانية بصندوق نواحي آقبو، حيث تتلمذ على شيخها المجاهد إمام الطريقة محمد أمزيان بن علي الحداد، وأصبح من المقدمين فيها (30).

ولما دعا الشيخ إلى الثورة في أبريل 1871م كان الشيخ علي بن الحملاوي في مقدمة من لى نداء الجهاد، وبانتهاء الثورة بالقمع العنيف من قبل فرنسا نفى الشيخ علي إلى جزيرة كاليدونيا لمدة أربع سنوات، ثم أعيد إلى لوطن لينزج به في سجن تبسه لمدة ثلاث سنوات، ثم أطلق ليسجن مرة أخرى بقسنطينة، وأخيرا أطلق سراحه فسارع بتنفيذ ما أمره به شيخه الحداد الذي كتب في

وصيته أن خليفته هو الحاج هو الحاج علي بن الحمالوي بن الخليفة، وأكد عليه القيام بتعليم القرآن لأنه هو الكفيل بإحياء الجهاد ضد المستعمر في الوقت الذي يريده الله تعالى (31).

كرّس حياته لنشر القرآن الكريم والعلم ونشر الطريقة الرحمانية، فكان مربيا ناجحا للكثير من العارفين والصالحين، وتخرج من زاويته عدد كبير من العلماء، والصلحاء، وحفظة القرآن الكريم، وفي عهده أصبح لزاويته إشعاع كبير في كل الشرق الجزائري وفي تونس ونشأت لها فروع، وكان له أتباع في مناطق كثيرة (32)، وهكذا قضى عمره في خدمة الإسلام، والقرآن الكريم، والعلم والتربية إلى أن توفي سنة 1317هـ، فتولى شؤون الزاوية بعده ابنه الأكبر الشيخ الحفناوي، فواصل رسالة والده مدة عامين، وبعد وفاته انتقلت مشيخة الزاوية إلى أخيه، والذي بقي على رأسها مدة 12 سنة في مواصلة الدعوة إلى الله ونشر القرآن والعلم (33).

وتولى المشيخة أخوه عبد الرحمن الذي عرفت الزاوية في عهده تطورا كبيرا كما زادت الطريقة على يده إشعاعا متزايدا وفيضا واسعا، بالإضافة إلى تطوير برنامج التعليم ومناهجه حيث كانت تدرس في الزاوية تقريبا كل العلوم التي تدرس في جامع الزيتونة، استقدم الشيخ سيدي عبد الرحمن أساتذة أكفاء من شيوخ جامع الزيتونة، وشيوخ بعض كبرى زوايا الجزائر.

وقام بتحديد وتوسيع المكتبة وإثرائها بنفائس المخطوطات وأمّهات الكتب في مختلف أنواع العلوم والفنون، ليستفيد منها العلماء والطلبة والدارسون، وقام سيدي عبد الرحمن بوقف مساحات زراعية واسعة على الزاوية ولا يزال هذا الوقف المورد الرئيسي لنفقاتها، وقد بلغ عدد الطلبة الداخليين في عهده نحو 600 طالب، منهم من واصل تعليمه بتونس، وفي الجامع الأزهر بمصر وغيره، وتخرج منهم طبقات من رجال العلم والقرآن الكريم، واللغة والتربية الروحية، وبعد حياة حافلة بالعمل الصالح وخدمة الإسلام توفي الشيخ عبد الرحمن سنة 1942.

وبعده تولى شؤون الزاوية ابنه الشيخ عمر المتخرج من جامع الزيتونة، وفي عهده وبسعي منه مع أهل الخير تم فتح المعهد الكتاني في قسنطينة، ليكون فرعاً مكملًا للتعليم في الزاوية الحمالوية، ويقوم بدور عظيم في نشر الثقافة العربية الإسلامية، وقد تخرج من الزاوية والمعهد نخب من الإطارات في كل المجالات العلمية، والتربوية، والإدارية، والسياسية، واحتلت مناصب سامية

في الدولة الجزائرية المستقلة⁽³⁴⁾، ومن الشيوخ الذين علموا بها العلامة الشهير المولود الحافظي الأزهري، والعلامة عبد الحفيظ بن الهاشمي، والعلامة الشاعر عاشور الخنقي، والشيخ أحمد الخالدي من بلدة سيدي خالد وخريج جامعة القرويين بفاس، والشيخ السعيد محمد بلحكيمي، والفقيه الشيخ محمد الطاهر آيت علجت، ومن علماء تونس محمد قريع والبشير صفية رحمهم الله⁽³⁵⁾.

وفي عهد الشيخ عمر بلحملاوي تزايد عدد الطلبة حتى بلغ حسب بعض الإحصائيات نحو 1000 طالب، وهؤلاء الطلبة كانوا في طليعة المجاهدين في ثورة نوفمبر حيث كانت الزاوية الحملاوية في مقدمة المؤسسات والزوايا التي لبّت داعي الجهاد، فقد أمر الشيخ عمر طلبة الزاوية بالالتحاق بالثورة، وفي سنة 1955 التحق الطلبة بإخوانهم المجاهدين، وتحولت الزاوية إلى مركز يأوي جنود الثورة، ويزودهم بالغذاء والأدوية والألبسة والسلاح⁽³⁶⁾.

وكانت هذه الزوايا الوجهة الرئيسية لطلبة منطقة عموشة، مع وجود طلبة آخرين تهلوا العلم وعلوم الشريعة في زوايا أخرى بمنطقة القبائل الكبرى والصغرى مثل زاوية سمعون، وزاوية تمقرا، وزاوية الشرفة، وغيرها من الزوايا داخل الوطن، وبعض العينات منهم أكمل دراسته في جامع الزيتونة في تونس وجامع الأزهر في القاهرة.

خاتمة:

كانت منطقة منتانو خزاناً بشريا لإعمار الزوايا ومراكز العلم المنتشرة في مختلف الآفاق، فيمكنون هناك لطلب العلم بجدية كبيرة ليرجعوا إلى المنطقة بتحصيل علمي يستفيد منه المجتمع، فيصبحون بدورهم منارات ومراجع فقه وفتوى، ومن هؤلاء برزت نخبة من الطلبة والمشايخ كل في حدود علمه ومستواه، إذ انبرى كل واحد منهم في توسيع دائرة الثقافة والعلم والفقه، والاتصال بالمراكز والهيئات العلمية والدينية، والإصلاحية كجمعية العلماء المسلمين الجزائريين على سبيل المثال وجامع الزيتونة.

الهوامش:

- (1) الحاضرة: مأخوذة من حضر والحضور والتي تعني التواجد في المكان أو المجلس، وتطلق لغويا على المدينة ذات الحضارة، وبما أنها تكون ملتقى العلم والعلماء والحضارات والمعارف فلذلك وصفت بها.
- (2) تسبب الغزو الفرنسي في تعرض المخطوطات للتلف والنهب والمصادرة والحرق حين هدمت الزوايا والمساجد التي كانت تزخر برصيد من الكتب والمخطوطات التي كانت محبوسة لخدمة العلم والثقافة معا، أنظر: جيلالي صاري: "مخطوطات قسنطينة ومصيبرها بعد سقوط المدينة سنة 1837"، مجلة الثقافة، ع 80، الجزائر، 1984، ص. 157.
- (3) شهادة أدلى بها الشيخ عمر عباس.
- (4) قرية الماعلي: تذكر في المصادر الفرنسية باسم عين السلطان نسبة إلى أحد الينابيع المائية فيها، من أهم القرى في بلدية تيزي نبشار، سواء من حيث موقعها الطبيعي، فهي تتوسط مجموعة من الجبال مما جعل من تربتها الرسوبية أكثر خصوبة، تتوسط أربع بلديات من بلديات شمال سطيف وهي: تيزي نبشار، عموشة، بابور، وادي البارد.
- (5) عبد الباهي بوزيت: عرش آث وغيليس، قبيلة أسطورية، الجزائر، 2013، ص. 90، 91.
- (6) كانت مقرا للأشراف ومنهم العالم الفاضل الشيخ أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي عالم بجاية وقاضيهما، والشيخ محمد بن إبراهيم الوغليسي، ومنهم الشيخ طاهر الجزائري الحسني الوغليسي من أسرة هاجرت إلى الشام، ويعد أحد رواد النهضة في بلاد الشام.
- (7) كانت مقرا للأشراف ومنهم العالم الفاضل الشيخ أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي عالم بجاية وقاضيهما، والشيخ محمد بن إبراهيم الوغليسي، ومنهم الشيخ طاهر الجزائري الحسني الوغليسي من أسرة هاجرت إلى الشام، ويعد أحد رواد النهضة في بلاد الشام.
- (8) الشيخ السعيد البهلوي (1859 - 1945) أصله من قرية البهاليل وهي من قرى بني ورثيلان، تلقى تعليمه على يد والده أولا، ثم أرسله إلى تلقي العلم على يد مشائخ آخرين منهم: الشيخ يحيى حمودي، الشيخ السعيد بن الحريزي العدلي، والعالم الفقيه الشيخ محمد القاضي الصدوقي...، أنظر: محمد الصالح الصديق: أعلام من منطقة القبائل، ج 2، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص. 86، 87.
- (9) شهادة أدلى بها الشيخ عمر عباس.
- (10) شهادة أدلى بها الشيخ عمر عباس.
- (11) المصدر نفسه.
- (12) الأجرومية: كتاب في علم النحو ألفه أبي عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي المعروف بن آجروم بدأه بالكلام عن الكلام وأنواعه وتسلسل مع المواضيع بأسلوب ابتكروه، يعتبر من أهم متون النحو العربي ولأهمية الأجرومية البالغة فقد تصدى لشرحها جهازة العلماء، وتدرس في جل جامعات اللغة والشريعة.
- (13) هي كتب مؤلفة في الزوايا الكبرى والمعاهد العليا في المغرب الإسلامي ساد تعليمها لقرون عدة.
- (14) شهادة أدلى بها الشيخ عمر عباس.

- (15) المصدر نفسه.
- (16) أحمد بوكاري: دور الزاوية المغربية في تدعيم المذهب السني، ع 257، جوان - جويلية 1986.
- (17) المصدر نفسه.
- (18) أحمد مسعود سيد علي: " دور الأسرة السحنونية بمنطقة بني وغليس في التصدي للحملات التبشيرية بالجزائر 1920 - 1954"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع، جامعة المسيلة، 2016، ص.330.
- (19) شهادة السعيد ضيافات عن شيخه صالح العباسي.
- (20) شهادة أدلى بها الشيخ عمر عباس.
- (21) المصدر نفسه.
- (22) عبد الباهي بوزيت: المرجع السابق، ص.90.
- (23) شهادة أدلى بها الشيخ عمر عباس.
- (24) ولد سنة 1839 و تكفلت بتربيته والدته في قرية إسحنون التي كانت تزخر بالعلماء والمشايخ، ومنهم ابن عمه الشيخ محمد وعلي السحنوني الذي تكفل بتحفيظه القرآن الكريم، وتعليمه اللغة العربية و علومها، انتقل بعدها مع شيخه وابن عمه ومربيه الشيخ بلقاسم آيت عمر السحنوني بعد تعيين هذا الأخير شيخا في مدرسة عين الروى بسطيف، ومن هناك اتصل بشيوخ أجلاء أخذ ما عندهم من علوم كالشيخ الحداد، و الشيخ محمد بن أبي القاسم البوجليلي، أنظر: علي أمقران السحنوني : الشيخ محمد السعيد السحنوني"، جريدة العقيدة ع 76 ، 8 فيفري 1992.
- (25) المرجع نفسه.
- (26) محمد الصالح الصديق: المرجع السابق، ج 1، ص.146.
- (27) المرجع نفسه، ج 1، ص.155.
- (28) صلاح مؤيد العقبي: الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت، 2002، ص.339.
- (29) تزعم الجهاد أعيانها مثل الشيخ محمد الشريف بن الحملاوي الذي كان تحت قيادته خمسة قبائل في أواخر العهد التركي، واستشهد في المعارك الأولى التي سبقت الاستيلاء على قسنطينة عام 1837، وكان منهم الآغا أحمد بن الحاج محمد بن الحملاوي الذي كان مستشارا لأحمد باي خلال ولايته الثانية سنة 1832 حيث عينه على رأس الجيش، وكان من المدافعين عن قسنطينة في الحملتين الفرنسيتين لاحتلالها.
- (30) صلاح مؤيد العقبي: المرجع السابق، ص.340.
- (31) المرجع نفسه.
- (32) في عام 1897 م كان له 44 زاوية و 227 مقدا، منهم العلامة الكبير الشيخ محمد البشير بن أحمد بن البواب الزموري، و 325 شاوشا وأن عدد أتباعه يفوق الأربعين ألفا.
- (33) صلاح مؤيد العقبي: المرجع السابق، ص.340.

(34) من الطلبة الذين تلقوا بها دراستهم الأولى نذكر مثلاً عبد المجيد الشافعي، والعربي سعدوني، وتركبي رابح، وسليمان بشتون، ومحمد بو خروبة المعروف بهواري بومدين.

(35) صلاح مؤيد العقبي: المرجع السابق، ص. 345.

(36) يشهد بهذا واحد من قدماء المجاهدين المشهورين وهو الأستاذ عمار النجار من ضباط الولاية الثانية و دالكاتب العام لجمعية الطلبة الجزائريين في مقال له نشر بجريدة النصر يوم 12 ديسمبر 1989 ومما جاء فيه: " لقد كانت زواياهم في مختلف جهات الوطن ملجأ لجيش التحرير، وأذكر هنا على سبيل المثال زاوية بلحملاوي بوادي سقان ولاية ميلة، لقد كان يلجأ إليها جنودها بالولاية الثانية، وأن رئيسها الشيخ عمر رحمة الله عليه قد فرضت عليه الإقامة الجبرية، و نقل إلى مدينة قسنطينة، كما كانت الكتانية منارة علمية يؤمها الطلبة التابعون لحزب الشعب، وكان من بين هؤلاء الأخ العقيد علي كافي أحد رؤساء ولايتنا الثانية " .